جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
كلية أصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

منهج الامام ابن القيم في تقرير التوحيد

إعداد
أمال بنت عبد العزيز بن محمد العمرو
رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إشراف
فضيلة الشيخ الدكتور / ناصر بن عبد الكريم العقل
الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

لعام ١٤١٥هـ

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

مَنهجُ الإمامِ ابنِ القَيِّمِ في تَقْريرِ التّوحيد

إعـــداد
أمال بنت عبدالعزيز بن محمد العَمْرو

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إشـــراف
فضيلة الشيخ الدكتور/ ناصر بن عبدالكريم العقل
الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

لعام ١٤١٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [سور آل عمران، آية: ١٠٢] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [سورة النساء، آية: ١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

[سورة الأحزاب، آية: ٧٠-٧١].

أما بعد: فعن ثوبان –رضي الله عنه– قال، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[١]، وهذه الطائفة المجاهدة هم أهل السنة والجماعة –الفرقة الناجية–، التي جاهد أعلامها في سبيل نشر عقيدتهم والدفاع عنها، وإبطال المذاهب المخالفة لها، ومن هؤلاء الأعلام: الإمام ابن القيّم –رحمه الله– إذْ هو من الأئمة الذين حفظوا لنا مذهب أهل السنة بدءاته، وجاهدوا المبتدعة والمحرفين للدين، ولِماَ كان لهذا الإمام من أثر بالغ في عصره –وهو الملموس اليوم في المكتبة الإسلامية– فقد كثرت المؤلفات والأطروحات العلمية التي تبحث في جوانب مختلفة من شخصيته وجهوده العلمية، وأذكر هنا ما يتعلق بمسائل العقيدة عند الإمام ابن القيّم –رحمه الله–، فمن هذه المؤلفات:

١- أطروحة دكتوراه، أجازتها جامعة أم القرى عام ١٤٠٤هـ، بعنوان (ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف) للدكتور: عبد الله جار النبي.

٢- أطروحة دكتوراه، أجازها الأزهر عام ١٩٤٧م تحت عنوان (ابن القيم المنتخب)، وقد طبعها صاحبها، الدكتور: عوض الله حجازي، بعنوان (ابن القيّم وموقفه من التفكير الإسلامي).

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة ١٥٢٣/٣، ح(١٧٠) طبعة دار الفكر، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

٣- أطروحة ماجستير، أجازتها كلية الشريعة الإسلامية بالقاهرة تحت عنوان (ابن قيم الجوزية، عصره ومنهجه، وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف) للدكتور: عبد العظيم شرف الدين.

وبالاطلاع على هذه الرسائل تبين لي أن الرسالة الأولى لم تتناول منهج الإمام ابن القيّم في تقرير التوحيد بالتفصيل إذْ شملت الرسالة كلامه -رحمه الله- في النبوات والبعث والحكمة والتعليل في أفعال الله، وأفعال العباد، والإيمان، وكان التركيز فيها على الرد والمناقشة وجهد ابن القيّم في ذلك. كما أن الرسالتين الأخيرتين أيضاً لم يُفصِّل فيها منهجه في تقرير التوحيد إذ شملت أبواباً أخرى في العقيدة، فجاء الحديث عن التوحيد موجزاً أضف إلى ذلك أنهما بحثا مسائل العقيدة بفكر أشعري مما أوقع الخلل فيهما[1].

كما سُجل في قسم العقيدة بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رسالتان: الأولى بعنوان (موقف الإمام ابن القيّم من آراء المتكلمين)، والثانية بعنوان (موقف الإمام ابن القيم من الصوفية) ويلاحظ أن هذه الرسائل كلها تنحو منحى بيان جهود الإمام ابن القيّم -رحمه الله- في الرد على المخالفين ومناقشة المتكلمين.

ويبقى جانب آخر مهم وهو جهده -رحمه الله- في تقرير مسائل التوحيد، ومنهجه في ذلك، ومن وجوه أهمية دراسة منهج الإمام ابن القيّم في تقرير التوحيد ما يلي:

أولاً: أن في دراسة منهج الإمام ابن القيّم في تقرير التوحيد، دراسةً لمنهج أهل السنة والجماعة في ذلك، وهذا أمرٌ يحتاجه كل طالب علم فهو يحتاج إلى رسوخ القدم في منهج أهل السنة قبل أي أمر آخر.

ثانياً: أن هذا الموضوع مكمل للرسائل العلمية السابقة فقد كان فيها منهجه في الرد والدفاع والجدل، ويبقى الوجه الآخر في منهجه في العقيدة من حيث التقرير والتقعيد والاستدلال للحق الذي هو عليه.

(١) انظر: ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي للدكتور عوض الله حجازي ص١٣٥-١٣٦، ١٥١-١٦٥، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٩. وَ ابن قيّم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، للدكتور عبدالعظيم شرف الدين ص ٣٣٨-٣٤٤، ٣٤٥، وما بعدها، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ، وانظر: الصواعق المرسلة لابن القيّم، مقدمة المحقق ٦٩/١، تحقيق الدكتور: علي الدخيل الله، طبعة دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

ثالثاً: أن منهج الإمام ابن القيم في تقرير التوحيد منثور في خضم مؤلفاته التي غلب عليها الدفاع عن العقيدة ومناقشة المتكلمين والرد عليهم وغير ذلك، فهو يحتاج إلى جهد في جمعه وتصنيفه حتى تكتمل صورته.

رابعاً: أن جهود الإمام ابن القيّم تميزت بالشمول والموسوعية والتأصيل والتقرير والاستقراء لمناهج السلف وآثارهم ومواقفهم، كشيخه ابن تيمية -رحمه الله- والحافظ ابن عبد البر -رحمه الله- وغيرهما.

خامساً: أنه لا أحد يجهل الفائدة العظيمة التي يجنيها المطالع لكتب الإمام ابن القيّم -رحمه الله- من حيث غزارة المعلومات، وارتفاع المستوى وصفاء العقيدة، أضف إلى ذلك قوة التربية الدينية واللغوية، وهذا مما زاد حرصي على هذا الموضوع.

وقد أقرّ بعنوان: (منهج الإمام ابن القيم في تقرير التوحيد)، وجعلته في مقدمة وتمهيد، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة ففيها بيان أهمية الموضوع، والدراسات السابقة له، وعرض عام لمخطط البحث، وبعض الأمور المنهجية التي اتبعتها فيه.

أما التمهيد فيتضمن مبحثين:

المبحث الأول: عصر الإمام ابن القيّم وترجمة موجزة له.

المبحث الثاني: مفهوم التوحيد وأنواعه.

أما الباب الأول فبعنوان: (منهج الإمام ابن القيم في تلقي العقيدة)

وفيه فصلان:

الفصل الأول: موقف الإمام ابن القيم من المنقول.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: اعتماده الكتاب والسنة وإعراضه عما سواهما.

المبحث الثاني: مرجعه في فهم النصوص.

المبحث الثالث: قبوله خبر الواحد.

الفصل الثاني: موقف الإمام ابن القيم من المعقول.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: العقل وحجيته في العقائد.

المبحث الثاني: موقفه من التأويل.

المبحث الثالث: موقفه من المجاز.

أما الباب الثاني فبعنوان: (منهج الإمام ابن القيم في تقرير التوحيد العلمي الخبري).

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: إثبات وجود الله.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: دليل الفطرة.

المبحث الثاني: الاستدلال بخلق الكون.

المبحث الثالث: الاستدلال بخلق الإنسان.

المبحث الرابع: شبهات منكري وجود الله والرد عليها.

الفصل الثاني: توحيد الربوبية.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أدلة توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: الرد على المخالفين فيه.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: طرق إثبات الأسماء والصفات.

المبحث الثاني: قواعد في الأسماء والصفات.

المبحث الثالث: منهجه في إثبات أهم ما وقع فيه النزاع من الصفات، (العلو، الكلام الرؤية).

أما الباب الثالث فبعنوان: (منهج الإمام ابن القيم في تقرير التوحيد العملي الإرادي)

وفيه فصول:

الفصل الأول: أهمية التوحيد الإرادي الطلبي.

الفصل الثاني: منهجه في تقرير هذا التوحيد وأدلته.

الفصل الثالث: مظاهر الشرك في هذا التوحيد وشبهات الواقعين فيه ومناقشتهم.

الفصل الرابع: أسباب الشرك ووسائله.

أما الخاتمة فبينت فيها أهم النتائج المستفادة من هذا البحث:

- بعض الأمور المنهجية التي سرت عليها في البحث.

لقد حاولت أن أجعل منهجي في هذا البحث منهجاً استقرائياً تحليلياً مقارناً، استقرأت فيه كلام ابن القيم في التوحيد وقارنته بمنهج السلف مبيِّنة سيره على منهجهم ومحللة لنصوصه قدر الإمكان ومناقشة لما قد يحتاج إلى مناقشة، وقد سرت فيه على بعض الأمور المنهجية ومنها:

١- التزمت الرسم العثماني في كتابة الآيات القرآنية، وأتبعت الآية اسم السورة ورقمها.

٢- كل كلام مثبت بين علامتي تنصيص فهو منقول بنصه، أما إذا كان الكلام منقولاً بمعناه أو بتصرف نحو تقديم وتأخير، وتغيير في بعض العبارات لم أضعه بين علامتي التنصيص، ثم صدرت الإحالة بلفظة: انظر.

٣- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وقد أضيف مصدراً آخر للفائدة. أما إذا كان في غير الصحيحين فقد أتوسع في تخريجه ثم أورد كلام أهل العلم - قديماً أو حديثاً- في الحكم عليه وهذا في الغالب.

٤- عزو الحديث أو الأثر يكون بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث وذلك في الكتب التي التزمت ذكر هذه المعلومات، وإلاَّ ذكرت ما وقفت عليه.

٥- ترجمت لغير المشهورين من الأعلام، والشهرة مسألة نسبية.

٦- شرحت ما قد يحتاج إلى شرحه من الكلمات الغريبة.

٧- أذكر بيانات المرجع كاملة -أول وروده- فأذكر اسم الكتاب واسم المؤلف ثم اسم المحقق أو المصحح أو المقدم (إن وجد)، ودار النشر (إن وجدت) واسم المطبعة وبلد الطبعة أو النشر ورقم الطبعة وتاريخها.

٨- إذا تكرر ذكر المرجع اقتصرت على اسم الكتاب والمؤلف مختصراً، وقد أذكرهما بما اشتهرا به، وقد اقتصر على ذكر اسم الكتاب دون مؤلفه.

٩- الرموز المستخدمة في هذا البحث كالآتي:

ص: الصفحة.

ح: رقم الحديث.

ت: رقم الترجمة.

١٠- إذا اطلقت لفظة (الإمام) فمرادي ابن القيّم -رحمه الله-.

١١- إذا ذكرت اسم المؤلف ولم أذكر اسم كتابه عند التخريج منه فمرادي كتابه المشهور الذي هو أحد الكتب الستة، أو كتاب ذلك المؤلف الذي اشتهر به.

١٢- ذيلت البحث بفهارس توضيحية، وهي على النحو التالي:

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث.

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم.

رابعاً: فهرس الفرق والطوائف.

خامساً: فهرس المراجع والمصادر.

سادساً: فهرس الموضوعات.

وفي الختام أحمد الله -تعالى- أن وفقني لإتمام هذا البحث، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ممثلة في كلية أصول الدين، وقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ومركز دراسة الطالبات على ما تقدمه من خدمة للعلم وطلابه، فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء.

كما أشكر أستاذي الفاضل المشرف على هذه الرسالة الدكتور/ ناصر بن عبدالكريم العقل، على متابعته الدائمة لي، وملحوظاته القيّمة، وكلماته المشجعة التي كان لها أبلغ الأثر في حث السير في هذا البحث، والانتصار على العوائق، وخروج البحث بهذه الصورة، وأشكر فضيلة الدكتور: محمد السعوي الذي اعتنى بهذا الموضوع مذ كان في مهده، كما أشكر الشيخين الفاضلين عضوي المناقشة الدكتور/ محمد العدوي، وفضيلة الدكتور/ محمد السمهري على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، كما أشكر كل من مد لي يد العون في هذا البحث: بإعارة كتاب أو مشورة أو توجيه، وإن أخص أحداً منهم فوالديّ الفاضلين أطال الله بقاءهما على طاعته، كما أخص بالشكر زوجي الفاضل عبدالله بن محمد المفلح، والأخ فهد بن عبدالله الخراشي، والأخت شريفة بنت مصلح السنيدي، فجزى الله الجميع خير الجزاء.

وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا بما علمنا وأن يجعل علمنا حجة لنا لا علينا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

التمهيـــــد

وفيه مبحثـان:

المبحث الأول: عصر الإمام ابن القيّم وترجمته.

المبحث الثاني: مفهـوم التوحيـد وأنواعـه.

.....

المبحث الأول

عصر الإمام ابن القيم وترجمته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: عصر الإمام ابن القيّم.

المطلب الثاني: ترجمة موجزة للإمام ابن القيّم.

.....

المطلب الأول

عصر الإمام ابن القيم -رحمه الله-

(٦٩١هـ-٧٥١هـ)

عاش الإمام ابن القيّم -رحمه الله- ستين عاماً مليئة بالأحداث والتغيرات التي أثّرت على حياته الاجتماعية والشخصية والعلمية، وعلى اتجاهه العقدي الفكري، إذْ الإنسان ابن عصره من حيث التأثر والتأثير، وكما أثّر عليه ذلك الجو الذي شب فيه؛ فقد كان له هو أيضاً الأثر البالغ في عصره، حيث لم يكن ابن القيّم ذلك الإنسان السلبي حتى يقف موقف المتفرج على الأحداث التي تجري من حوله.

ويمكننا أن نعطي صورة موجزة لذلك العصر؛ تبين لنا الجو الذي نشأ فيه الإمام ابن القيّم متدرجاً مذْ سن الطفولة، وحتى غدا فيما بعد مكتهلاً علماً، كبيراً مكانةً وسنّاً. ولنبيّن مدى أثر ذلك الجو على حياته، وأثره هو كذلك بصفته إماماً من أئمة الهدى في الجانب العقدي بخاصة الذي هو موضوع البحث هنا.

أولاً: الناحية السياسية:

لقد تميز القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه ابن القيّم؛ بأوضاع سياسية قلقة وغير مستقرة، يدلنا على هذا كثرة السلاطين الذين تولوا زمام الأمور في ذلك العصر؛ والمدة الوجيزة التي يقضيها الواحد منهم حاكماً. إذْ أنه كلما اشتد بأس أمير من الأمراء، انقلب على السلطان، وطلب الرياسة؛ وهكذا يغالب الأخير أميرٌ آخر أعلى مكانة منه فيأخذ السلطة من بين يديه، وأحياناً يكتفي بخلع الأول وأحياناً أخرى يصل الأمر إلى قتله...!، وشذ من تلك السياسات القلقة: مدة سلطنة الناصر محمد[1] إذْ حكم منذ سنة ٧٠٩هـ، وحتى سنة ٧٤١هـ، وكان قد خلع قبل ذلك مرة ثم أعيد ثم اعتزل من الحكم ثم عاد سنة ٧٠٩هـ، وكانت السلطة بيد هؤلاء السلاطين، أما الخليفة

---

(١) محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، الملك الناصر ابن المنصور، كانت إقامته في طفولته بدمشق، ولي السلطنة ثم خلع لحداثته، ثم وليها واعتزل، ثم وليها سنة ٧٠٩ واستمر حتى وفاته سنة ٧٤١هـ، كان غاية في الكرم وقوراً مهيباً. انظر ترجمته في: الدرر الكامنة لابن حجر ١٤٤/٤-طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، لبنان، والأعلام للزركلي ١١/٧ -دار العلم للملايين ١٩٨٦م.

فليس له من الأمر شيءٌ.

وقبيل عصر الإمام ابن القيّم –رحمه الله– توالت على الأمة الإسلامية حروب ضروس مع كل من النصارى الصليبيين[1] من جهة، والتتار[2] من جهة أخرى، حتى انتهت الحملات الصليبية الحاقدة في السنة التي ولد فيها الإمام ابن القيّم، وبقي الخطر الآخر وهو الخطر التتري، وكان التتار قد احتلوا أغلب المناطق في الشمال الشرقي من البلاد الإسلامية، ومن ضمن ذلك (العراق).

وفي دمشق –حيث نشأ الإمام ابن القيّم– كانت أراجيف ضخام حول عزم التتار غزو دمشق؛ تثير الرعب في أفئدة الناس فلاتجعلهم يهنأون بعيش[3].

- آثار هذه الحملات والحروب على الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية:

(١) أيقظت هذه الحروب حماس المسلمين لدينهم لما رأوه من حقد النصارى على الإسلام، كما أنهم استشعروا معنى الجهاد في سبيل الله إذْ عايشوه بأنفسهم، وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) تأثير كبير في تذكية حب الجهاد في نفوس الناس والمصابرة والمرابطة في سبيل الله[4].

(٢) انتشر الرفض[5] في الديار التي استولى عليها التتار، حيث كان في بعض ملوكهم ميلٌ

---

(١) امتدت الحروب الصليبية من ٤٩٠هـ – ٦٩٠هـ، وسُميت بهذا الاسم لأنهم جعلوا الصليب شعاراً لهم مما يدل على أنها كانت حربًا دينية مع النصارى. انظر: التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر، ٢٤/٦، طبعة المكتب الإسلامي –بيروت– الطبعة الثالثة– ١٤٠٧هـ.

(٢) التتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي، وأرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان براري، ومشهورون بالشر والغدر. والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعًا من مغول وترك وسلاجقة وغيرهم وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلة من مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيز خان، واسمهم يعم القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمور لنك، وشمل اسمهم القبائل كلها. انظر: التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر، ٣٤٦/٦.

(٣) انظر في مثل هذا: البداية والنهاية، لابن كثير، ٥/١٤، ١٧، طبعة دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ.

(٤) انظر: المرجع السابق، ١٦/١٤–١٧.

(٥) الرافضة تطلق على بعض فرق الشيعة، وقد اختلف كتّاب المقالات في مسمى الفرق التي يطلق عليها اسم الرفض فالأشعري (٣٢٤هـ)، خص الرافضة بالإمامية الإثنى عشرية وجعل الشيعة ثلاث طوائف ١–الغلاة. =

إلى عقيدة الرافضة: فقد جاء في حوادث سنة ٧٠٩هـ «وفيها أظهر ملك التتر خربندا، الرفض في بلاده وأمر الخطباء ألاّ يذكروا في خطبتهم إلاّ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وأهل بيته»[1].

(٣) كانت أخبار عزم التتار على غزو بلاد الشام تقلق الناس وتخيفهم حتى تسبب ذلك في جفول كثير من الناس وهربهم ليتحصنوا بالحصون المنيعة، فقد ذكر في البداية والنهاية: «في سنة سبعمائة في مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك[2]. والحصون المنيعة»[3].

(٤) كما أثرت على النواحي الاقتصادية، فَغَلَت أسعار الدواب التي تستعمل للركوب أو الأكل حتى بيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان[4].

(٥) أما من الناحية العلمية، فنجد أن الحروب لم توقف السير العلمي النشط، يقول

= ٢- الروافض الإمامية. ٣- الزيدية. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ٦٦/١، ٨٨، ١٣٦، طبعة بتحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ. والملطي (٣٧٧هـ) جعل الرافضة مصطلح يعم الإمامية والغلاة والزيدية. انظر: التنبيه والرد، للملطي ص١٨، تعليق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية ١٤١٣هـ. وأما البغدادي (٤٢٩هـ)، والإسفراييني (٤٧١هـ)، فقد جعلوا الرافضة مصطلح يشمل الزيدية والكيسانية والإمامية، وأخرجوا الغلاة من فرق الإسلام، انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٣- تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، والتبصير في الدين، للإسفراييني ص١٧، تحقيق الكوثري، مكتب نشر الثقافة الإسلامية -الطبعة الأولى- ١٣٥٩هـ ولعل الأقرب ماذهب إليه الأشعري أن لقب الرافضة يطلق على الإمامية ويدخل في هذا الإسماعيلية، وظهر هذا المصطلح لما كان الشيعة في عسكر زيد ضد جيوش الخلافة فسألوه عن رأيه في الشيخين فأثنى عليهما، فرفضوه ونقضوا بيعته، فقال رفضتموني فسموا الرافضة، فانقسمت الشيعة إلى زيدية وإلى رافضة إمامية. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/١٣-٣٦، جمع وترتيب: الشيخ/ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، تم الطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة، ١٤٠٤هـ.

(١) البداية والنهاية، ٥٨/١٤.

(٢) الكرْك بسكون الراء قرية في أصل جبل لبنان، والكَرَك بفتح أوله وثانيه اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، والكَرَك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي ٤٥٢/٤-٤٥٣، طبعة دار صادر -بيروت، ١٩٩١م.

(٣) البداية والنهاية ١٥/١٤ باختصار.

(٤) انظر: المرجع السابق الجزء والصفحة نفسها.

محمد كرد علي صاحب خطط الشام[1]: «ومن رأى كثرة المدارس في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع وقلة ماشيّد منها في القرن العاشر والثاني عشر؛ يستنتج معنا أن الناس إذْ ذاك كانت على جانب من التدين والغنى وحب الخير أكثر من القرون التالية» إلى أن قال: «وقد فسد الناس في القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها».

وقد عدّ من تلك المدارس في هذه القرون فوق الثلاثمائة مدرسة، عدا الزوايا والخوانق والربط[2].

ثانياً: الناحية العلمية:

بالرغم من كثرة القلاقل والاضطرابات السياسية وغير السياسية في ذلك العصر؛ إلاّ أن ذلك لم يؤثر على الناحية العلمية، لامن حيث كثرة الدروس والحلق العلمية وإقبال الطلاب والمشايخ عليها، ولا من حيث كثرة التدوين والتأليف العلمي.

إن عصراً يظهر فيه أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن القيّم، والإمام الذهبي[3]، والإمام المزّي[4]، والإمام ابن كثير[5]، -وهؤلاء هم مصنفو أعظم كتب أهل السنة- لحريٌ بأن يُسمى عصر التألق العلمي.

---

(١) في خطط الشام لمحمد كرد علي ٦٨/٦، الناشر مكتبة النوري في دمشق -الطبعة الثالثة- ١٤٠٣هـ، وهو محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كرد علي، أحد كبار الكتاب، تولى رئاسة المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد أسسه، توفي سنة ١٣٧٢هـ. انظر: الأعلام ٢٠٢/٦.

(٢) الزوايا والخوانق والربط هي عند الصوفية أماكن العبادة، مأخوذة من الرهبنة المسيحية، وهي تشبه تماماً أديرة الرهبان النصارى ذات الأسوار العالية البعيدة عن عالم الناس والعمران، وقد بنوها للتعبد والذكر والأوراد، وليس هذا في الحقيقة إلاّ تقليلاً لشأن المساجد وصرف الناس عنها، وفي هذا مخالفة لأوامر الله تعالى؛ وتعاليم رسوله -ﷺ-. انظر: التصوف - المنشأ والمصادر- لإحسان إلهي ظهير، ص٨٥-٨٧، الناشر إدارة ترجمان السنة، لاهور -الطبعة الأولى- ١٤٠٦هـ.

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، التركماني الأصل الفارقي ثم الدمشقي، الحافظ أبو عبد الله، كان أكثر أهل عصره تصنيفاً، وعلامة زمانه في الرجال، من مؤلفاته (دول الإسلام) و(سير أعلام النبلاء)، توفي عام ٧٤٨هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣٣٦/٣، والأعلام ٣٢٦/٥.

(٤) يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن القضاعي الكلبي، الدمشقي الشافعي، جمال الدين المزي، الحافظ الكبير، محدث الديار الشامية في عصره، من مؤلفاته (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) توفي عام ٧٤٢هـ. انظر: شذرات الذهب، لابن العماد، ١٣٦/٦ -دار إحياء التراث العربي- بيروت، والأعلام ٢٣٦/٨.

(٥) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، الشافعي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه مفسر، انتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦هـ، ورحل في طلب العلم، من مصنفاته (البداية والنهاية) و (تفسير القرآن العظيم)، توفي سنة ٧٧٤هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣٧٣/١، والأعلام ٣٢٠/١.

كما ظهر فيه كثير من علماء الأشاعرة[(١)] ونحوهم؛ ذوي المدونات المعروفة، أمثال عضدالدين الإيجي[(٢)]، وسعد الدين التفتازاني[(٣)]، وأبي حيان الأندلسي[(٤)]، والرافضي ابن المطهر الحلّي[(٥)].

فكان هذا العصر خليطاً من ثقافات شتّى، تتفاوت من حيث المستوى العلمي والمادة المفيدة، ويحكي ذلك ابن القيم -رحمه الله- قائلاً عمّا في كتب الناس من آراء وكلاميات ومعقولات أنها: «بين علوم لاثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لاتغني من الحق شيئاً، وبين أمور صحيحة لامنفعة للقلب فيها؛ وبين علوم صحيحة قد وعرّوا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها»[(٦)].

---

(١) يسمون الأشاعرة لانتسابهم لأبي الحسن الأشعري (٣٢٤هـ)، ومجمل اعتقادهم أنهم لايثبتون من صفات الله إلاّ سبعاً وهي: السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة، ويؤولون باقي الصفات وهم يوافقون أهل السنة في غالب أصول الاعتقاد، عدا الصفات وبعض مسائل القدر والإيمان ونحوها، وقد كان أبو الحسن في أول أمره على مذهب الاعتزال، ثم خرج منه إلى مذهب وسط بين أهل الحديث والمعتزلة تابع فيه ابن كلاّب؛ وهذا هو الذي عليه جمهور الأشاعرة، ثم رجع أبو الحسن إلى معتقد السلف وأصحاب الحديث وأعلن انتسابه إلى الإمام أحمد -رحمه الله- ، وذلك في كتبه المتأخرة كالإبانة، ومقالات الإسلاميين، وبقي الأشاعرة على ماكان عليه أبو الحسن بعد تركه مذهب المعتزلة وقبل دخوله في مذهب أهل السنة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٩٤/١ ومابعدها، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٨/٣، وَ ١٦٧/٤، ورسالة في الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي، ص١٦٦-١٦٨، تحقيق: عبد الوهاب خليل الرحمن، الدار السلفية في بومباي - الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

(٢) عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار، أبو الفضل، كان إماماً في المعقول، قائماً بالأصول والمعاني والعربية مشاركاً في الفنون، من مؤلفاته (المواقف في علم الكلام)، توفي سنة ٧٥٦هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣٢٢/٢، والأعلام ٢٩٥/٣.

(٣) مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول وألّف في أصول الدين، توفي سنة ٧٩١هـ. انظر: الدرر الكامنة ٢٥٠/٤، بغية الوعاة للسيوطي ٢٨٥/٢- طبعة المكتبة العصرية.

(٤) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، أبو حيان، عالم باللغة وإمام في النحو والتصريف، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وغيرها من العلوم، توفي سنة ٧٤٥هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣٠٢/٤، والأعلام ١٥٢/٧.

(٥) حسن بن يوسف، ويقال حسين بن يوسف بن مطهر الحلي العراقي الشيعي، أبو منصور، شيخ الروافض المعتزلي، اشتغل في العلوم العقلية، وصنف في الأصول والحكمة، له كتاب في الإمامة رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بكتاب (منهاج السنة النبوية) انظر: الدرر الكامنة ٧١/٢، والبداية والنهاية ١٢٩/١٤.

(٦) إغاثة اللهفان لابن القيم ٤٤/١ ، تحقيق: محمد حامد فقي، مكتبة الرياض الحديثة.

ثالثاً : الناحية الاجتماعية:

لقد أثر الاضطراب السياسي في عصر الإمام ابن القيّم على الأوضاع الاجتماعية تأثيراً بالغاً، حيث مال الناس إلى العزلة والانغلاق على أنفسهم، مما أدى بالتالي إلى تفكك المجتمع الإسلامي، أضف إلى ذلك ماشاع في ذلك العصر من عصبية مذهبية لم يسلم منها طبقات كثيرة من المجتمع، فلكل مذهب قضاة وبينهم مابينهم من الخلافات في الفروع والعقائد، حتى وصلت الحال أن يُقرأ كتاب على المنبر فيه الحط على شيخ الإسلام ومخالفته في العقيدة وإلزام أهل مذهبه بمخالفته في البلاد الشامية والمصرية، وجرى للحنابلة من ذلك إهانة عظيمة[1].

ومما يجدر الحديث عنه هنا أيضاً تفشي بعض الأمور المحرمة التي تنم عن مرض المجتمعات الإسلامية في ذلك العصر، ومن ذلك الغناء المحرم، والسماع الصوفي، يقول ابن القيم -رحمه الله-: «فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، فتمايلوا ولاكتمايل النشوان ... فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق... فيا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خَوَاصّ الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن»[2].

كما ظهر الافتتان بالصور واستفحل داء العشق، فتفشى الزنا واللواط لهذه الأسباب وقد تكلم عن هذا الإمام ابن القيّم في :[إغاثة اللهفان][3]، وفي كتاب (الداء والدواء) وفي (روضة المحبين).

وانتشرت أنواع الحيل والخداع في العقود والمعاملات، وقد ناقش هذه الأمور الإمام ابن القيّم في [إغاثة اللهفان][4]، ولشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- رسالة [إقامة الدليل على إبطال التحليل]، حيث انتشر نكاح التحليل والعياذ بالله على نطاق واسع في ذلك العصر.

وأدى الغلو في بعض الناس أن وقعوا في الوسواس حتى كاد أن يفتك بهم، وقد تطرق

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٤/٤٠،٤٦-٤٨، ٢٠، ٣٧.

(٢) إغاثة اللهفان ١/٢٢٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٢/١٢١ وما بعدها، وص ١٤١ وما بعدها.

(٤) انظر: المرجع السابق، ١/٢٦٨ إلى ص١٢٠ من الجزء الثاني.

ابن القيم –رحمه الله– إلى هذه القضية في كتابه (إغاثة اللهفان)[(١)].

وفي خضم هذه الأوضاع والأحوال الفاسدة يرشد الإمام ابن القيّم –رحمه الله– إلى سبيل التعايش مع هؤلاء الناس فهو يقول: «الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدني بالطبع، لابد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، واعتقادات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلابد له من الناس ومخالطتهم، ولاينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم. وفي الموافقة ألم وعذاب، إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب، إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم وإراداتهم، ولاريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم»[(٢)].

كما أن اليهود والنصارى كانوا يشكلون أيضاً نسبة كبيرة من المجتمع، ولذلك نرى العناية من العلماء في مناقشة أحوالهم وأحكامهم لما لهم من تأثير على فئات المجتمع الأخرى من النواحي الأخلاقية والدينية، فابن تيمية ألف (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، وابن القيّم ألف (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)، وكتاب (أحكام أهل الذمة).

أوضاع العقيدة في عصره:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– هو حامل لواء أهل السنة في أوائل القرن الثامن الذي عاش فيه ابن القيم، والأوضاع التي تعرض لها ابن تيمية –رحمه الله– تبين ماكان يحل بأهل السنة في ذلك العصر من اضطهاد وتضييق.

فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يُحاكم في مجالس متتابعة؛ بسبب تأليفه (العقيدة الواسطية) وأمثالها[(٣)]؛ وكم مرة سجن في القلعة بسبب سلفيته –رحمه الله– وقد نال تلميذه ابن القيم –رحمه الله– مانال، يقول ابن رجب[(٤)]: «وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع الشيخ

(١) انظر: إغاثة اللهفان ١/١٢٦–١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ٢/١٩٣.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٣٨–٤٠.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٨، الناشر دار المعرفة، بيروت، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢هـ، وابن رجب هو عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي أبو الفرج المحدث الحافظ، أكثر المسموع وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف الكثير، من ذلك (ذيل طبقات الحنابلة)، توفي سنة ٧٩٥هـ. انظر: الدرر الكامنة ٢/٣٢١، وشذرات الذهب ٦/٣٣٩، والأعلام ٣/٢٩٥.

تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلاّ بعد موت الشيخ.

بل إنه لما غاب نائب السلطنة[١] في دمشق عام ٧٠٥هـ وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيابه، وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية وعزّر بعضهم ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ؛ قرأ فصلاً في الردّ على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صَصْرَى[٢]، وكان عدو الشيخ فسجن المزي، ولما قدم نائب السلطنة ذكر له شيخ الإسلام ماجرى في حقه وحق أصحابه في غيبته، فتألم النائب لذلك، ونادى في البلد أن لايتكلم أحدٌ في العقائد ومن عاد إلى ذلك حلّ ماله ودمه، ورتبت داره وحانوته، فسكنت الأمور[٣].

وكان ذلك في عام ٧٠٥هـ، وابن القيّم لايزال يافعاً في الرابعة عشرة من عمره ولكي نعطي صورة واضحة عن أوضاع العقيدة في عصره؛ سنذكر بعض الفرق التي كان لها وجود وانتشار في ذلك الحين، ونبين مدى اتساع مذاهبها أو تقلصها، وأثره في عصر الإمام ابن القيّم -رحمه الله-.

١- انتشار مذهب الأشاعرة:

كان للأشاعرة وجود كبير في البلاد الإسلامية، وقد كانوا -ولا يزالون- يزعمون أنهم هم أهل السنة، ولذلك فرضوا مذهبهم على كثير من البلدان ودخل فيه أغلب طبقات المجتمع، وحتى القضاة الذين كانوا يُرَسّمون في ذلك الوقت يكثر فيهم الأشاعرة، ولهذا نجد المقريزي[٤] بعد أن حكى جملة

---

(١) هو جمال الدين آقوش الأفرم الرحبي المنصوري، والي دمشق مدة طويلة نحواً من إحدى عشرة سنة وكان محبوباً لدى العامة مدة ولايته، توفي سنة ٧١٩هـ، انظر: البداية والنهاية ٩٨/١٤.

(٢) أحمد بن محمد بن سالم، أبو المواهب، نجم الدين ابن صصرى، قاض، وكان من العلماء بالحديث، من أهل دمشق ولد سنة ٦٥٥هـ، وتوفي سنة ٧٢٣هـ ، انظر: البداية والنهاية ١١٠/١٤، والأعلام ٢٢٢/١.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٣٩/١٤. وانظر مثل هذه الحوادث أيضاً في: البداية والنهاية ٣٨/١٤، ٤٠، والتسعينية لابن تيمية ضمن مجموعة فتاوى ابن تيمية الكبرى ٥/٢-٣ -طبعة دار المنار ١٤٠٨هـ.

(٤) أحمد بن علي بن عبدالقادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، عمدة المؤرخين، ولد ونشأ ومات في القاهرة، من مؤلفاته (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، ويعرف بالخطط المقريزية توفي عام ٨٤٥هـ، انظر: شذرات الذهب ٢٥٤/٧، والأعلام ١٧٧/١.

من أصول عقيدة أبي الحسن الأشعري[١] قال: «فهذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه»[٢].

ويزيد الأمر وضوحاً تلك الاضطهادات لشيخ الإسلام ابن تيمية وللإمام ابن القيّم وغيرهما من أهل السنة بسبب بعض المصادامات حول مسائل العقيدة مع الأشاعرة.

٢- الجهمية[٣]، والمعتزلة[٤]:

لقد قلّ وجود الجهمية والمعتزلة بكثير في القرن السابع والثامن الهجري عما كانوا عليه في القرن الثالث والرابع والخامس. أما الجهمية فقد تميعت ودخلت في فرق أخرى مؤثرة عليها

---

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم، أبو الحسن، ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري، وهو متكلم بصري، صاحب مصنفات عديدة، أقام مدة على الاعتزال ثم رجع عنه وسلك طريقة ابن كلاب وأيدها بمناهج كلامية، وعليها سار المنتسبون إليه من الأشاعرة، ثم إنه ترك ذلك كله وانتسب إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأعلن رجوعه إليه في مؤلفاته الأخيرة كالإبانة مثلاً، توفي سنة ٣٢٤هـ، انظر ترجمته في: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص٢٤، ١٤٦– تقديم وتعليق: محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ، وشذرات الذهب ٣٠٣/٢. وانظر: الملل والنحل للشهرستاني ٣٢/١، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٦/٢ –تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية.

(٢) الخطط المقريزية ٣٦٠/٢– مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

(٣) الجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان أبي محرز مولى بني راسب، وهو من أهل خراسان وقد تتلمذ على الجعد بن درهم، كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة، وكان الجهم كاتباً للحارث بن سريج من زعماء خراسان، وخرج معه على الأمويين فقتلا بمرو سنة ١٢٨هـ. والجهمية تطلق أحياناً بمعنى عام ويقصد بهم نفاة الصفات عامة، وتطلق أحياناً بمعنى خاص ويقصد بهم أتباع الجهم بن صفوان في آرائه، وأهمها نفي الصفات والقول بالجبر، والقول بفناء الجنة والنار. انظر: مقالات الأشعري ٢١٤/١، ٣٣٨، الملل والنحل ٨٦/١–٨٨، والفرق بين الفرق ص٢١١–٢١٢، والتبصير في الدين ص٦٣–٦٤، ومجموعة فتاوى ابن تيمية الكبرى ٣١/٥–٣٥ والخطط للمقريزي ٣٤٩/٢، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٧، ولسان الميزان لابن حجر ١٤٢/٢–١٤٣، طبعة دار الكتاب الإسلامي –الطبعة الثانية.

(٤) ويسمون أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، ولعل الراجح في تسميتهم بالمعتزلة لاعتزال رئيسهم واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، وهم يقولون بالأصول الخمسة وهي: (التوحيد) وستروا تحته نفي الصفات والقول بخلق القرآن، وَ (العدل): وستروا تحته القول بخلق الإنسان لأفعاله، وَ (المنزلة بين المنزلتين): وستروا تحتها تكفير مرتكب الكبيرة، وَ (انفاذ الوعد والوعيد)، وَ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وستروا تحته وجوب الخروج على الإمام الجائر، انظر عن المعتزلة: الملل والنحل للشهرستاني ٤٣/١–٤٤، وتكلم عنهم وعن أصولهم الخمسة عواد المعتق في كتابه (المعتزلة وأصولهم الخمسة).

بأصولها. وأما المعتزلة فيقول ابن جماعة[1]: «فأما مذهب الاعتزال فقد محي في بلادنا رسمه، ولم يبق فيها إلاّ ذكره»[2]. ولعل سبب تقلصه هو ارتفاع رأس الأشعرية في تلك القرون، كما أن مذهب الاعتزال قد أفَلَ نجمه بعد محنة الإمام أحمد بن حنبل. أما أصول الاعتزال والتجهم فقد بقيت وأخذت بها فرق أخرى، كبعض متكلمي الأشاعرة، وفرق الرافضة، وغيرهم، حيث دخلت أصول الجهمية والمعتزلة في كثير من عقائدهم ومناهجهم.

٣- انتشار التصوف[3]:

كان لكثير من الطرق الصوفية وجود في ذلك العصر، ونجد المجلد الحادي عشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– كان بكامله جوابات عن أسئلة وردت عن بعض الطرق وفقراء الصوفية، مما يدل على أنها منتشرة على نطاق واسع، وقد ناظر شيخ الإسلام دجاجلة البطائحية[4]، وقال عنهم –رحمه الله–: «وهؤلاء كذّابون مبتدعون قد أفْسَدُوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم»[5]. وذكر تلبيسهم على بعض الأمراء في عصره.

وتتكلم كتب التاريخ عن وجودهم ونفوذهم واستقلال آرائهم، مما يدل على كثرتهم واتساع دائرتهم[6]. ولذلك اعتنى الإمام ابن القيّم بمناقشة بعض مسائل الصوفية والرد عليها في كتاب (مدارج السالكين)، وكذا في (طريق الهجرتين).

---

(١) ستأتي ترجمته ص (٢٠) ضمن مشايخ ابن القيّم –رحمه الله–.

(٢) (إيضاح الدليل في قطع حجاج التعطيل) لابن جماعة، ص٨٩–٩٠، تحقيق وهبي سليمان غاوجي. دار السلام – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٣) الصوفية: نسبتهم أقرب ماتكون إلى الصوف وهو اللباس الذي كانوا يرتدونه لتزهدهم، وكان أول طريقهم هو الزهد في الحياة الدنيا وانتهى بهم المطاف إلى طريق الفسق والوجد، والفناء والاتحاد والحلول وغير ذلك وهي بدعة دخيلة على الإسلام، وملاعب للوثنية يمارس فيها الضلال والخرافات، انظر عنهم: رسالة (الصوفية والفقراء) لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١١/٥–٢٤ وانظر أيضًا ١١/٢٥–٢٦، و(التصوف) لإحسان إلهي ظهير.

(٤) البطائحية هي الطريقة الأحمدية وتسمى بالرفاعية، والبطائح عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة إليها ينسب الشيخ الرفاعي، ومنه سُمّوا بالبطائحية. انظر: شذرات الذهب ٤/٢٥٩.

(٥) مجموع الفتاوى ١١/٤٥٧–٤٥٨.

(٦) انظر: البداية والنهاية ١٤/١٩–٢٨.

٤- أصحاب وحدة الوجود[١]:

انتشر القول بوحدة الوجود في عصر ابن القيّم بشكل كبير، عكس لنا هذه الصورة أن كتب الأئمة في ذلك العصر قد أكثرت الحديث عنهم ومناقشة أقوالهم وبالذات شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم وأمثالهما، ولذلك قال شيخ الإسلام: «ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين وأكابر مشايخ الدين: لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال وإيضاح هذا الضلال»[٢].

٥- الرافضة والباطنية[٣]:

انتشر الرفض في البلاد الإسلامية، وكان للرافضة في عصر ابن القيّم نشاط كبير ولذلك ترفض ملك التتر «خربندا» السالف الذكر[٤] بعد أن كان حسن الإسلام ولكن لعبت برأسه الرافضة حتى استمالته، ولما ترفض حظي عنده ابن المطهر وساد جدًا وأقطعه بلاداً كثيرة[٥]، وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية على كتابات ابن المطهر في كتابه (منهاج السنة) بما يكفي ويشفي.

أماعن الباطنية كالنصيرية[٦] مثلاً فقد جاء في حوادث سنة ٧١٧هـ: أن النصيرية خرجت عن

---

(١) هم الذين يقولون: إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق، كما يقول ذلك أهل الوحدة، كابن عربي، وابن سبعين وغيرهما. فهم يقولون إن الله لايوجد مستقلاً عن الأشياء، وهو نفس العالم، والأشياء مظاهر لحقيقته الكلية، أو مظاهر لذاته تصدر عنه بالتجلي. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٤٩/٢ – والمعجم الفلسفي لعبد المنعم الحفني ص٢٨٠ – الدار الشرقية –مصر– الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٢) مجموع الفتاوى، ٣٥٧/٢.

(٣) الباطنية: لقب عام تنطوي تحته طوائف عديدة تلتقي جميعها في تأويل النصوص الظاهرة وإثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص وإخراجها عن معانيها الظاهرة مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه العملية. وقد أظهر أكثر هذه الفرق التشيع، ومما ذكروه من ألقابهم: الباطنية، القرامطة، الإسماعية، النصيرية، الخرّمية، التعليمية، الملاحدة، الإباحية. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٢٨١، وما بعدها، التبصير في الدين. للإسفراييني، ص٨٣ ، وما بعدها، وانظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، للدكتور أحمد جلي، ص٢٦٥، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

(٤) انظر: ص٥ من البحث.

(٥) انظر: البداية والنهاية، ١٣٠/١٤.

(٦) النصيرية من غلاة الشيعة الباطنية الذين تبنوا آراء منحرفة وعقائد باطلة انتهت بهم إلى الخروج من الإسلام، ونسبتهم فيها خلاف هل ينسبون إلى الجبال التي يقيمون فيها أم إلى النصارى، أم إلى ابن نصير، ولعل الأقرب هو الأخير حيث إن النسق العام هو نسبة الفرق إلى مؤسسيها. انظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، د: أحمد جلي، ص٣١١.

الطاعة، وكان من بينهم رجل سمّوه محمد بن الحسن، المهدي، القائم بأمر الله، وتارة يدّعي أن علي ابن أبي طالب فاطر السموات والأرض -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، وتارة يدّعي أن محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وخرج يكفر المسلمين، وأن النصيرية على الحق، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلاّل، وحملوا على مدينة جبلة(١)، فدخلوها وقتلوا خلقاً من أهلها، وخرجوا يقولون لاإله إلاّ علي، ولاحجاب إلاّ محمد، ولاباب إلاّ سلمان، وسبّوا الشيخين، وصاح أهل البلد وا إسلاماه، واسلطاناه، وا أميراه، فلم يكن لهم يومئذ ناصر ولامنجد، وجعلوا يبكون ويتضرعون إلى الله عزّ وجل(٢).

أما الإسماعيلية(٣) فقد استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس(٤) عام ٦٧٢هـ حيث اختفى الإسماعيلية بعد ذلك من الحياة العامة ولم يسمع عنهم شيء حتى القرن التاسع عشر الميلادي(٥). فلم يكن لهم على ذلك نشاط مذكور في عصر الإمام ابن القيّم -رحمه الله-.

٦- انتشار الحلولية(٦):

لقد ظهرت فكرة الحلول منذ وقت مبكر، فقد كانت بدايتها على وقت علي -رضي الله عنه- ثم قُمعت، ولكنها عاودت الظهور في أوقات متفاوتة حتى انتشرت على نطاق واسع في عصر الإمام

---

(١) جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، ١٠٥/٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ٨٥/١٤.

(٣) ينتسب الإسماعيلية إلى إسماعيل، الابن الأكبر لجعفر الصادق، وقد تفرعت هذه الطائفة من الشيعة الإمامية بعد موت جعفر عام ١٤٨هـ، حيث لم يعترفوا بإمامة موسى الكاظم، الإمام السابع للإثنى عشرية وساقوا الإمامة بدلاً عنه إلى إسماعيل أو ابنه محمد، وعقائد الإسماعيلية مأخوذة من الفلسفة اليونانية ومزيج من عقائد مسيحية ويهودية إضافة إلى عناصر مجوسية. انظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين. د: أحمد جلي، ص ٢٦٥-٢٧٢.

(٤) الملك الظاهر هو السلطان الكبير ركن الدين بيبرس التركي البندقداري صاحب مصر والشام، كان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً عظيم الهيبة، له أيام بيض في الإسلام وفتوحات مشهورة، توفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: شذرات الذهب ٣٥٠/٥.

(٥) انظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين للدكتور أحمد جلي، ص٣٠٦. وانظر: الخطط المقريزية، ٣٤٣/٢.

(٦) هم فرقٌ ظهرت في دولة الإسلام، كان غرضهم إفساد التوحيد على المسلمين، وتفصيل فرقها في الأكثر يرجع إلى غلاة الروافض، لزعمهم أن روح الله تحل في أئمتهم ابتداءً بعلي -رضي الله عنه-، وهذا هو الحلول الخاص ومنه اعتقاد غالية النساك بحلول الله تعالى في بعض الأولياء. أما الحلول العام فهذا مذكور عن طائفة من الجهمية المتقدمين الذين يقولون إن الله بذاته في كل مكان. والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٥٤، والتبصير في الدين للإسفراييني ص٧٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧١/٢ .